Archive of SID

حبُّ النّيل فی أصداء النيل

مهدی ممتحن*
حسين محمديان**

الملخص

ما زالت العرب تذكر النيل وما يزال فی أشعارهم قديماً وحديثاً فلايكاد يخلو منه ديوان شعر من دواوين شعراء مصر والسودان. وفتن عقول الشعراء فنشدوا فيه روائع شعرية، تتسم برقة الديباجة وسلامة الأسلوب وجزالة اللفظ وشرف المعنی. فمنهم الشعراء من أحبوا النيل حبا جماً كالشاعر «عبدالله الطيب المجذوب» الذی سمی ديوانه «أصداء النيل».

النيل عنده يخرج من دائرة الحس والمادة إلی دائرة المعنی، فهو رمز لقوة الإرادة وإنّ مجد النيل هو مجد الوطن، ومن ثم التغنی بحب النيل هو غناء بحب النيل، إذ يجد الشاعر عنده الطمأنينة والسكينة بسبب علاقة حميمة تربط بينهما منذ الطفولة الباكرة، وإنّ الصلة بينهما هی صلة «الحب الفطری» ومن ثَمَّ كان الحنين إلی النيل حنيناً إلی الإنسان والزمان والمكان، فتعلقت روحه بالنيل وأهله، فلا يكاد يستطيع مفارقته. لذلک يتحدث عن النيل فی ديوانه مرّات؛ بل وسمی تسعاً من قصائده ومقطوعاته الشعرية بأسماء النيل.

الكلمات الدليلية: النيل، أصداء النيل، عبدالله الطيب، الحنين، حب النيل.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فی جيرفت ـ أستاذ مشارک.
**. خريج جامعة تربيت معلم فی سبزوار.
Dr.momtahen@gmail.com

تاريخ الوصول: ۱۳۸۹/۳/۱هـ. ش
تاريخ القبول: ۱۳۸۹/۱۰/۱۹هـ. ش

www.SID.ir

Archive of SID

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى إعطاء صورة واضحة وخليفة موجزة عن حقيقة النيل وطبيعته وأثره فى حياة الشاعر عبدالله الطيب، وتأثره به ومكانته فى نفسه عبر «أصداء النيل» فقد كان النيل وما يزال ملهم الأدباء والفنانين، ومبعث الشعر والأدب ومبرز معانى العزة والكرامة والشوق والحنين ومبادئ الحرية ورفض الخضوع على مر العصور، والأزمان. فالنيل هوالحب الأزلى، وهو الماضى، والحاضر، والمستقبل، والرجاء، والوفاء، والشموخ، والعزة، والوقار، والعظمة عند كثير من الشعراء والأدباء.

الشعر من أقدم آليات التعبير الفنى وأقواها التفاتا إلى الطبيعة، واهتماما بتصوير ظاهرها وسحرها وروعتها. كما ينفعل الإنسان بالمواقف المتعلقة بحياة الفرد أو الجماعة كذلک تجذبه الظواهر الطبيعية، تثير فى نفسه مشاعر شتى. النيل هو أساس لهذه الطبيعة، فهو سفر وطنى مقدس تقرأ فى صفاته عقول الناشئة ماضى أجدادها التليد، وتستلهم من عمقه وسكوته ولطفه ووقاره القوة والحكمة. ومن ثم أخذت ألسنة الشعراء ترد منهله، وتتهافت عليه كما يتهافت الفراش على الرحيق تعبّ منه تلک المعانى السامية وتنهل من فيضه الزاخر، وتستوحى من ماضيه تاريخ أمتها المشرقة فلم يخل ديوان من دواوين أبناء النيل من ذكره، والإشارة إليه، والتغنى بفضله العميم، وخيره الدفاق. (طالبى، ١٣٧٦ش: ١٢٣)

قد أثر هؤلاء الشعراء الساحة الأدبية وغامته الشعرية بروائع لاتحصى ولايسع المجال للوقوف عندها جمعاء، ولا للوقوف عند الشعراء أجمعين. بل ونكتفى بلمحة عابرة من قصائد «عبدالله الطيب المجذوب» فى ديوانه «أصداء النيل».

النيل لغة

قيل أنه كان معروفا باسم «حابى» (إله النهر) وربما كان اليونانيون هم أول من استخدم اسم نيلوس Neilos. كما قيل إن النيل مأخوذ من اللغة الفارسية، وهى «نيل» أى الأزرق وهناک رأى آخر وهو: اسم النيل منحدر من لفظ (أيال) القبطى بعد إضافة

www.SID.ir

Archive of SID

المقطع (نى) كأداة تعريف للجمع فى اللغة القبطية وقد أضاف اليونانيون إليها المقطع (OS) لتصبح نيالوس، ثم حذفت بعد ذلک فى استخدام الوس. وما من شک أن هذا الرأى الأخير هو الأقرب إلى الصواب. (الشامى، ١٩١٧م: ١٧)

يقول ابن منظور فى لسان العرب إن الأصمعى قال: «نالة الحرم ساحتها وباحتها النيل نهر مصر حماها الله وصانها» وفى الصحاح «فيض مصر، ونيل نهر بالكوفة» وحكى الأزهرى وقال: «رأيت فى سواد الكوفة قرية يقال لها النيل...» (ابن منظور، ج١٤، مادة: نيل) أما الزبيدى فيقول فى تاج العروس:

فقــد رميت بِداء لَسْــتَ غَاسِــله مــا جاوَزَ النِّيل يومــاً أهل أبْليلا

قرية بالكوفة، قال النعمان بن المنذر يجيب الربيع بن زياد العبسى:

والنيل قرية بـ«يزد» على مرحلتين منها: النيل نبات «العظلم»، وأيضاً نبات آخر ذو ساق صلب وورق صغار. أما النيل بالكسر فهو السحاب. (الزبيدى، ١٣٠٦ق، ج٨، مادة: نيل)

حياة الشاعر

ولد فى السودان غربى «الدامر» فى سنة ١٩٢١م، تعلم بمدرسة «كسلا» و«الدامر»[١] و«بربر» وكلية غوردن بالخرطوم، والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت[٢] الرضا وجامعة لندن بكلية التربية، ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية، نال الدكتوراه من جامعة لندن

١. دَمر : أهلک، دَمّر: حطّم، دَمَر (عامية سودانية) مكان الإقامة فى أشهر الصيف. والدامر مدينة، قرب مدينة عطبرة فى السودان . دميرة: فيضان النيل والكلمة مستعلمة فى عامية مصر. وفى مصر قريتان بهذا الاسم من إحداهما الدّميرى صاحب «حياة الحيوان» والكلمة قبطية فيما ذكر «محرم كمال» ومعناها السيل أوفيضان النيل بزيادة أداة التعريف للمؤنث بأوّلها وأصلها ميرى أوميرا وهى ترجع إلى أصل هيروغلوفى هو(مر) بمعنى بحر أومياه أوبحيرة. (عون الشريف، ١٩٨٥ م، ص ٤٠١ ٤٠٢)

٢. بَخْت : حظ وهى فارسية الأصل، قال السيوطى فى المزهر (٣٠٩/١) « قال البغدادى فى الفصيح قول العامة له بخت مكان حظ مولد ليس من كلام العرب». (عون الشريف، ١٩٨٥ م، ص ٨١)

www.SID.ir

Archive of SID

SOAS سنة ١٩٥٠م، عمل بالتدريس بأم الدُرمان[١] الأهلية وكلية غوردن وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها من الجامعات.

تولى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم (١٩٦١ – ١٩٧٤م) كان مديراً لجامعة الخرطوم وأول مدير بجامعة جوبا، عمل أستاذا للعربية بالمغرب فى كلية الآداب بجامعة محمد بن عبدالله بفاس. له عدة مؤلفات منها «المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» و«الأحاجى السودانية» و«نافذ القطار» و... له عدة دواوين شعرية مثل «أصداء النيل» و«يانات رامة» و«أغانى الأصيل» و«زواج السمر».

عضو عامل بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ ١٩٦١م، وعين رئيسا لمجمع اللغة العربية بجمهورية السودان فى ١٩٩٠م وفى بدء تأسيسه، منح الدكتوراه الفخرى فى اللغة العربية بجمهورية السودان فى ١٩٩٠م، وفى بدء تأسيسه، منح الدكتوراه الفخرى من جامعة الخرطوم وجامعة بايير وبكنو بنيجريا ومن جامعة الجزيرة بالسودان. شارک فى عدة مؤتمرات فى السودان وخارجها وله مساهمة فى الصحافة والإذاعة والتلفزيون. فسر القرآن كله من إذاعة أُم دُرمان ونشر تفسير جزء عم وتفسير جزء تبارک. (الطيب، ١٩٩١م، ج٣: ١٨٤)

أصداء النّيل والنّيل

يحتوى ديوان عبدالله الطيب أصداء النيل على ١٦٠ قصيدة ومقطوعة وهزجا ومسمطا وقصة، وتدور موضوعاتها حول شعر الحب والجمال والوصف والمدح والرثاء والموضوعات القومية وفى ديوانه قصائد نظمها فى الطبيعة وحبه لمظاهر الطبيعة، يبدو بكل وضوح وكانت الطبيعة فى شعره مجالاً لتأملاته الشعرية.

يتجلى حب عبدالله الطيب لمظاهر الطبيعة فى مادة الخيال التى يعبر بها عن خلجات نفسه ومعانيه. فهو كثيراً ما يتخذ من الأزهار والأنهار والغابات والصحارى والألحان

١. مدينة غرب الخرطوم.

www.SID.ir

Archive of SID

والأنوار وغير ذلک من محاسن الطبيعة مادة لخياله. فعشق النيل لأنه صوت السودان، فيلوذ الشاعر بالنيل، ذلک النيل الذى كم عشقه، وتدله فى حبه فيلتجىء إليه، ويكشف له ما يختلج فى صدره ويسمى ديوانه «أصداء النيل» ويكثر من ترديد هذه الكلمة النيل، فى شعره.

كما سمى تسعاً من قصائده ومقطوعاته فى «أصداء النِّيل» بهذه العناوين: ذكرى النيل، ماء النيل، حبذا النيل، النيل، أوز النيل، إلى النيل، حنين إلى النيل، روض النيل، صورة أخرى لروض النيل. كما يتكلم عن النيل فى القصائد التالية:

الصابر، الربيع، الشتاء، زنجية جنوبية، ألاحبذا نهر، رنا قلبى، إنجيلک شعر الثورة المصرية، ذكرى، رسم الحادثات، ندم الشباب، البدر فى مانشستر، السدود، المركب النهرى، النيم، بخت الرضا، النخلة، يا سدرة بالتل، سفر الصداقة، خواطر مفيدة، أمس زرنا أم الدجاج، الدب والدولار، بدامر الصدق، الربع المحيل، إلى الخرطوم، شكوى وعزاء، يا جارة البين غربة وذكرى، الوطن الضائع، وداع الخرطوم، هموم وفلسطين، ذكرى حافظ، صخر أسوان.

حبّ النّيل

إن التعبير عن حب النيل والتعلق به قديتخذ أسلوب الصراحة والوضوح بالتعبير المباشر بلفظ (الحب) وذلک تأكيد معنى المحبة، وغرسه فى النفوس، والفخر بترديده، والاعتزاز بالتغنى به؛ ولذلک نجد الشعراء يرددونه ويكررونه فى أكثر من موضع (أحب النيل ذا التيار...)، (أحب النيل زمجر...)، (أحب النيل حين صفا...)، (يا حبَّذا النيل إذ رف الأصيل...)، (يا حبَّذا النيل أنى كان منسربا...)، وحبَّذا وقفة النيل...)، (وحبَّذا شطآه والنخيل...).

والمتصفح لأصداء النيل، يرى فى النظرة الأولى مدى تعلق عبدالله الطيب وحبه بالنيل؛ وفى رأيى إن الشعر جدير بالنظر والتقدير فى ديوانه إنما يتجه إلى التغنى بنغمات الحب فى مظاهره المختلفة خاصاً فى الطبيعة. تطور حب عبدالله الطيب من حب ضيق

www.SID.ir

Archive of SID

إلى حب أفسح، وكان يحب صوراً أخرى من الجمال ووصف النيل وأعجب به عندما أنشد قصيدته «إلى الخرطوم» ومطلعها هى:

إلــى الخُرطُوم من بعــد إغتِرَابِ وبعــد بِلَى الشَــهِى من الشــباب

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٩٩)

فالنيل دار له هيبة النسک ووقاره، تجد النفس عندها المتعة الروحية وتسبح فى جماله وحسنه، تعشقه وتحبه فيقول الشاعر فى القصيدة نفسها:

أحــبّ النيلَ حِيــنَ صَفَا وشَــعَّتْ تَهاوِيــلُ الأَصيــلِ عَلَــى الرِّوَابِى

هُبُّ النِّيلَ به الريحُ الشَمَالِ عَلَى شِرَاع كَسَــالِفةِ الأَوَزةِ ذِى انسِــياب

وَلَــولاَ النيــلُ والذكــرى وصبرِى وأنّــى لِلْمَــكاره ذو غِــلاَب

أحــبُّ النيــلَ ذَا التّيــارِ يطفُــو ويلطُــمُ جَانبيــهِ بِالعبَــاب

أحــبُّ النيــلَ زَمجَــرَ ثُــمَّ لَجَّــت سَــوَاقِيه الشَّــجِيةِ فــى انتحَــاب

سَــمِعتُ بكاءَهــا والعُمــرُ غَــضٌّ يعَللنــى بآمــال عــذاب

وعَزَّائــى تَنَهُّدُهَــا مُطيفَــا بِــهِ سَــجعُ القمَــارى الطّــراب

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢٠٠)

إنه النِّيل وقد خلبت مناظره الجذابة البهية، لبَّ الشاعر وملكت عليه أحاسيسه وهو يتأمله وقت الأصيل، وريح الشمال تداعب موجه ودفاعه، حيثما تتهادى فوقه الزوارق الشراعية وهو يموج كريش الأوزة نعمة وبطئاً، إنه النِّيل تحن إليه النفوس لتجد فيه المسرة والجمال الفطرى. (الطيب، ١٩٩٢م: ٢٠١)

إنها صورة شعرية تنبض بالحياة والحركة مفعمة بالحب الخالص للنيل الخالد، وهى غناء صداح بجماله، ذلک الجمال الذى تعشّقته النفس منذ رقة أناملها، وهى تطرب لسماع أصوات سواقيه الشجية وصدح قماريه حيث أزفلة من الفتيات الحسناوات فى أثوابهن الغبراء قددلفن يحتطبن من شاطئيه فى طمأنينة وأمان، يتمتعن بحسنه وجماله فهو كَم جميل رائع عند الأصيل:

www.SID.ir

Archive of SID

يــا حَبّذَا النّيلُ إذا رَفَّ الأصيلُ وإذا مَاء السَّوَاقى عَلَى الرَّوضَات سَكَّاب
وَفِتيــةٌ قَــد تَلَوا يــسَ فِى سَــحَرِ وَغَيرُهُم فِى حَشَــايا اللَّيلِ مَا ثابوا

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٨٢)

فالقلب مولع بحب النيل ويتشوق للتمتع بحسنه الجذّاب وإحساس الشاعر هنا إحساس صادق تحت ظلّ الحنين والغربة، كما تثير الحب والحماس الروحى فى النفوس واصفاً فى تعابير رقيقه ومعان دقيقة حنانه واشتياقه برؤية النيل فى الصيف، فيقول فى مقطوعته «إلى النيل» حيث ينشد:

أُحِبُّ النيــلَ فى الصَّيفِ وقَــدْ زَمْجَــرَ واهتاجــا
ومَشْــتَى لَنْــدنَ البــاردَ والمَوْقِــدَ وهَّاجــا
ولَيــلَ السَّــمَرِ الآن سِ لا تَرْهُــبُ إحراجــا
ومَــسَّ الأَذْمُــلِ الغــى مــن إشــراقها تاجــا
وبَــشَّ الزهْــرُ يحكيهنَّ إذْ أَقْبَلْــنَ أَفواجــا
همى دَمْــعُ امرئٌ القيس على الأطــلال إذ عاجا

(الطيب، ١٩٩٢م: ٩٢)

أولع عبدالله الطيب بالصور المشرقة فى شعره فعشق النّيل عشق النور والإشراق. يصف الشاعر النيل فى مقطوعته «ألا حَبَذا النهر» إذ يصف فيها الظواهر الطبيعية التى تنبض بالحياة، ويصور لنا التصاوير الحية كلوحة قلمية رائعة، ولذلك لاينقلها نقلا محضا، بل ينقل من أحساسيسه وشعوره، ولاتدخل فى باب الغموض فى وصفه ويقف بجانب النِّيل ويتغنى بسحره لكى يزيد سحراً على سحر، فيقول:

ألا حبَّــذا نَهْــرٌ تــكاد غِياضُــه لِمَا أَشْــرَفُتْ من جانبيــهُ تَلاحُم
تَوَثَّــبُ فيــه كُلُّ ذاتِ مســافَةٍ من الحســن فيهــا أَنْجُــدٌ وتهائم
تراهُــنَّ فيه ســابحاتٍ وقــد حَنَا عليهــنَّ صَــدْرٌ منــه رَيَّــانُ رائم
وهيهــات منــک النيــلُ طامــحٌ يجيشُ، به التمساحُ أَسْحَمُ ساهم

www.SID.ir

Archive of SID

وســمراءُ عند النيلُ جاذَبَ خَطْوُها تكسُّــرُها فــى مَشْــيها والنســائم

(الطيب، ١٩٩٢م: ٥٤ و٥٥)

فيقول فى مقطوعة أخرى باسم «النيل» حيث ينشد:

ألا يــا حَبَّــذا النيلُ ال خصِيبُ العيش من نهر

وذاك السُّــنْبُلُ الــراع ش فيــه نَفَــسُ الفجــر

ونَطْــوِى شُــقَّةَ مَسُــوقين ولا نــدرى

(الطيب، ١٩٩٢م: ٩٠)

يستمر عبدالله الطيب فى تصوير معالم تلك الحياة الوادعة على شاطئ النيل، ويصور جمال طبيعته، وقد انسكبت مياه السواقى دفاقة فى الرياض الغناء، ثم يدلف لتصوير الحياة الروحية لساكنيه، فهؤلاء صبية يتلون آى الذكر الحكيم بالأسحار، وأولئک فارقت جنوبهم المضاجع فى حنايا الليل يتجهدون، وهم يعيشون فى كنف النِّيل، ويتمتعون بجماله الأخاذ:

يا حَبّــذَا النيل أنَّى كَانَ مُنسَــربا وحَبَّــذا ثَبــجٌ منــهُ وكُثبَــان[1]

وحَبَّذَا شَــاطِئاهِ والنَّخِيــلُ ونيرَانُ القُــرَى ومَعِيــزُ الحــى والضَّــانُ

وحبَّــذا وَقفَــهٌ بالنيــل إذ دَلكَت بَعــدَ المَقِيل ورام الــرى رُعيان[2]

الــواردِاتُ ضِفــافِ النيــلِ أزفِلَةً يرحَضْنَ ثُمَّ مــا يرحَضْنَ خُلقَان[3]

والنيلُ يهجِسُ فى أعمَاقِ أنفُســنَا مُذ نَحنُ فى سَبَحاتِ المَهدِ وِلْدَان

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢٤٢ و٢٤٣)

فتشب النفوس وهى تحسن فى أعماقها بهذه المعانى السامية التى تتوطد مع مر الزمان وترسخ فى القلوب التى تعلقت بحب النيل وتشربت منه الجلال والمهابة والاعتزاز بالذات

١. ثبج النهر: أعالى موجه هنا.

٢. دلكت: أى الشمس وذلک يكون قرب العصر.

٣. يرخصن: يغسلن . والرخص: غسل فيه ضرب وكذلک يكون الغسل عند شاطىء النيل خلقان: أى ثياب بالية. الأزفلة : الجماعة.

www.SID.ir

Archive of SID

منذ سبحات المهد. وقد أجاد الشاعر فی إبراز هذا المعنی وتصویره، فقوله هذا هو تعبیر یجمع بین عاطفتی (الحب والبراءة) فالهجس من الأعماق وبث اللواعج والهواجس هی مزیة من مزایا العشاق والمحبین الذین أضناهم الجوی، وقرح أکبادهم الهوی، وناوشتهم لواعج الوجد والحب. وما همسات النفس وهواجسها إلاَّ صدی لذلک، وإفصاح جهیر بمکنوناتها، وبما یعتلج فیها، فالنیل یهجس فی أعماق النفوس وهو یفیض علیها تحنانا ومحبة کهوی العشاق والوالهین.

أما قوله (فی سبحات المهد والدان)، فهو إفصاح عن عاطفة البراءة والعفاف الفطری، لأن الطفولة تعنی (التجرید) إلاّ من الفطرة الأولی التی لم یشبها شائب ولم یدنسها دنس، فالطفولة هی رمز النقاء وصفاء السریرة، (فولدان المهد) براءتهم هی قبس من نور الإله، یشع صفاء وإشراقا. ولما کانت عاطفة الحب تتأرجح بین التوهج والخمود، والتوقد والذبول، فإنَّها ترمز إلی الحیاة البشریة التی لا تقف علی حال ولا تستقر علی نهج واحد، بل تتقلب توهجا وخمودا، یسرا وعسرا، فعاطفة الحب هی رمز لها، أما براءة الطفولة، فهی رمز الفطرة الأولی، تلک الفطرة السویة النقیة الظاهرة. فما تتغنی به النفوس، إذا ما هو إلا صدی لهواجس النیل فی أعماقها، وما الحنین إلیه وحبّه إلا ترجمان ذاتی لذلک التلاقی البعید منذ سبحات المهد. (التنی، ۱۹۸۸م: ۱۱۱ و۱۱۲)

أوّل ما یلفت النظر فی قصیدته «ذکری النیل» حنین الشاعر للنیل، وهو بلندن فیقول:

بلندن ما لی من أنیسٍ ولا مال — وبالنیل أمسَی عاذرِی وعُذّالی
ذکرتُ التقاءَ الأَرزَقَینِ[1] کما دنا — أخو غَزَلٍ من خذرِ عَذرَاءَ مکسال
ینَازِعُهـا کیما تَجُـودَ وَینْثَنی — وقَد کَادَ، مَحبُوراً مُؤانِسَ آمال
إذا الأَبیـضُ الزَّخّارُ هاج عُبَابه — له زَجَلٌ من بین جال إلی جال
ترافقه مـن فوقه قَـزَعُ الطَّخا — فَتَحسـبُهُنَّ الطّیرَ تهفو لأوشال

(الطیب، ۱۹۹۲م: ۵۰)

۱. الأمن بالتحریک کالأمن والمراد هنا: احرزنی موضع أمن منه لایناله العداة.

www.SID.ir

Archive of SID

إنّها صرخات مغترب حرقها النوى، يحن فيها للنِّيل وقد اسودت فى مقلتيه الحياة فى ديار الغربة من ألم البين والفراق يهتف ملء فيه، يأمل الإياب والرجوع لتلك الروابى وأولئک الرفاق وذلک الحبيب. فذكر النيل مرة أخرى فى مقطوعته «ماء النيل» فينشد:

يـا ليـت أنَّ النيل عنـدى ماؤه　　فأجعَلَـهُ وهنْـاً مـزاج مدامـى
هنـاک تَحَسَّـيتُ الصِّبـا وعقيبَهُ　　وإن كان شاب الحَسوَ جَرعُ سِمَام
وآمُـل سُـؤرَ العَيـشِ ثُـمَّ وأنَهُ　　يحَـمَّ بِـهِ إمَّـا هلكـتُ حمامى

(الطيب، ١٩٩٢م: ٥٠)

فبلاده بعيدة المنال عن يديه، ويفصل بينهما أرض وماء فلا سبيل إلى الوصال، ولكنه لا ينفک يحن إليها ويتحرق شوقا وحبا لرؤيتها ويتمنى أن يدنو ماء النيل منه ليرتشف منه رشفات، علها تهدئ من شدة وجده لدياره ووطنه فإن الأيام سوف تسعد بعودته، وتهنأ له الحياة عند النِّيل، بين حبيبه ورفاقه حينما تلامس الطمأنينة شغاف قلبه، ويحس لحظتها براحة البال والضمير، فالنيل عند الشاعر أصبح محط سعادته وهنائه فهو جدير بأن يفد، وأن تَكِنّ النفس له كل آيات المودة والاحترام.

يحن لبلاده ويتشوق شوقاً لماء النيل والنيل منه بعيد، وقد عظم وجده واشتد حبه لواديه، فأصبح لايلوى على شيء إلاّ رؤياه والرجوع إليه، فهو رجوع الذات إلى طينتها الأولى، التى تعلمت منها الحياة والسعادة فينشد:

شَوقَاً إلى النيل ذِى البَشَاشَةِ كَم　　سَـعِدتُ فِـى رِيفِـه ومُدُنِـهِ
وكَـم تَحَسَـيتُ مِـن سُـلافَتِه　　مكـرم العَـرضِ غَيـر مُمتَهنـه
لـولا المقاديـرُ كانِ أحرَزنـى　　مـا لاينَـال العُـدَاةُ فـى أمنِه[1]
ولـم أقَـض الأيـام مُدْجَنَـةً　　فـى بَلَدٍ قَـد سَـئِمتُ من دجنه

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢١٣)

فالنيل هو كنانة الصبابات والأشواق التى قد كتمها الشاعر المحب عن الناس وحجبها

١. الأمن بالتحريک كالأمن والمراد هنا: احرزنى موضع أمن منه لايناله العداة.

www.SID.ir

Archive of SID

عنهم، إلا ما اعتراه من آهات وحزن، وتباريح الهوى، وتلك الشكوى التى يبثها فى الليل الدجوج للرجوج إلى الرحمن بأبيات شعر حرار، تعبيراً عن حرارة الأشواق واللواعج. فالنيل وحده هو الذى تجد النفس عنده العزاء والسلو.

ولَيسَ مَسِيرى فِى البِلادِ بِمُبعِدى عَن النِّيلِ إنَّ النِّيلَ فِيه دِيارى
وفِيه الصَّبَاباتُ الّتى كَتَمْتُهَا عَنَ النَّاسِ إلا آهَتِى وجُوارى
وشَكوَاى لِلرّحمَن فِى حَلَك الدُّجَى بأبياتِ شِعرِ يعتَلِجنَ حَرَار

(بانات رامة، لاتا: ۹۹)

فهو عزاء للنفس منذ ريعان نشأتها الأولى وقد أحبته منذ طفولتها الباكرة، فهو سلواها وملاذها إن تكالب عليها اليأس، وتنازعتها النوازع.

عَزَاء النَّفسِ أنتَ إذا تَغَشى رُبَا الأمَالِ يأسٌ كالضَّبَاب
حَبَيتُكَ إذ نَبَاتُ العُمرِ غَضٌّ ووَردُ الحُبِّ أحمر كالشِهاب

(بانات رامة، لاتا: ۱۰۵)

كان النيل رمزا من رموز الشوق والحنين، إذ فيه الدار والمأوى والمنزل والمربع، وفيه ذكريات حبيبة إلى النفس ترجع صدى أيام سعد، تهيج الوجدان وتؤجج العواطف فتحن إلى تلك الديار وتلك الأيام الخوالى. ولما كان: «أول رموز الشوق والحنين هو المأوى، والدار والمنزل أوضح ما يدل على المأوى، ثم المرأة فرع من هذا المعنى إذ هى كانت المأوى الأول حين كانت أما، ثم هى المأوى الثانى حين تكون الخدن والزوجة والخلة والصاحبة، والعرب تكنى بالبيت عن المرأة.» (الطيب، ۱۹۹۱م، ج۳: ۱۴۱) فالنيل هو أيضا رمز من رموز الشوق والحنين ففيه المنزل والدار. فينشد فى مقطوعته «حَبّذا النيل»:

حبَّذا النيل مَنزلاً ونخيلُ النَّيلِ والليلُ مُقمرا والنُّجوم
ورِمالٌ كأنَّهُنَّ إضِى دارجٌ موهناً بِهنَّ النَّسيم
ورباعٌ يشَادُ فيهن بالذك ر وتتلى يس أوحمُ

www.SID.ir

Archive of SID

وقبــورٌ ثَوينَ فــی ذلک القَفـ ـــر ســقتهنَّ بالذِّهاب الغيوم[1]

فَــرَّق الدَّهــر بينهُــنَّ وعزَّی نَفسَــه بعــد عهدهــنَّ اليتيم

(الطيب، ١٩٩٢م: ٧٤)

إنّ الاغتراب عن الوطن، والبعد عن الأهل والديار وذوی القربی، وفراق الأحبة، يؤجج العواطف ويلهب الشعور المغتربة الذی طوَّحت به أيدی النوی، وهو يحس بالوحدة، وألم الفراق وعذابات البين، فلا يجد بدا من اللجوء إلی ذكرياته السالفة، يجد فيها الأنس والترويح ويلتمس عندها الطمأنينة والسلوی وهو يقاسی آلام الغربة وجراحاتها فيقول فی قصيدته، روض النيل:

أشاقَ قَلبَکَ رَوضُ النَّيل ترمقه ودُونَ ذلــک آمــاد بعيــدات

بَحرٌ خِضَمّ تضِلُّ الســاريات به وَرَءاهُ مصــر والبيــد التنوفات

أو تَرکَبُ اللُّوحُ تمطو ذات أجنحة بک الفضــاءَ لها بالجــو أَزَّات

ألا تری الکَوْنَ قد أبدی مفاتِنَه وَرَفَّ الــرَّوض آفــاق نضيرات

تری الرُّبا لاح إبريزُ الشعاع بها ودُونهــا وَهَــداتٌ مدلهمــات

والغانيــاتُ بأثوابٍ تزرکشــها تزينهــنَّ شُــفُوفٌ عبقريــات

يخفِقن کالزَّهَــر البَری فی مَرَحٍ أَو هُنَّ فی مَوجِهِ الزاهی فراشات

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٧٩)

فدون المغترب ووطنه بحار عراض تتيه فيها السفن، وصحاری شاسعات، فأنّی يتسنی له رؤية النيل ورياضة الغناء، وقد أرقه الحنين إلی الوطن والأهل. فذكری الوطن والحنين إليه، قد ملكت من المغترب فؤاده واستحوذت علی قلبه وجنانه، وهو يتمنی أن يرَ الوطن ويلثم ثراه، كناية عن شدة الشوق لوطنه الذی تفصل بينه وبين المغترب الفجاج والبحار. فيقول فی قصيدته حنين إلی النيل:

أيا طاب وِردُ النيل إذ هاج هادِراً وجَاشَ علی الآفاقِ باللُّجَجِ الحمر

١. الذهاب بكسر الذال جمع ذهبة بكسرها وهی الدفعة من المطر.

www.SID.ir

Archive of SID

على شـاطِئيهِ النَّخلُ والَّيلُ شاملٌ ومن فَوقِهِ الخضَـراءُ تُزهر بالبدر
يذكِّرُنـی قُمريـهُ مُتَرَنِّمـاً بُلَيبِـلُ روضٍ صادحٌ غلس الفَجر
تَرَنَّمَ حتـى رَنَّ فی القلـب لَحْنُهُ وحتى دموعُ الصب من طَرَبٍ تجرى
وخَيـل للعَينَيـنِ سُـجَّعُ ضالَـةِ تَجَمَّعـنَ من وُرقٍ عليها ومن كُدر
وهيهـات منـى بالجَزيـرَةِ نُوَّح على الطَّلحَ يملأنَ المسامع بالشعر...
فيـا لَيـتَ أنَّ النيلَ يدنُـو فماؤهُ أحَـبُّ إلينَـا مـن مُعَتَّقـةٍ بِكـر
ومن كَاعِبٍ حَسـناءَ لَـذٍّ حديثُها تَفَـاوَحُ مـن أثوابهـا بَنَّـةُ العِطر[1]
فمـن مُبلِـغٌ قومى السـلامَ تَحِيةً فَقَلبِـی لا ينفَکُّ مِنهـم على ذُكر

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٧٧ و١٧٨)

فماء النيل أحب إلى نفسه، وأطيب من كل اللذائذ والمغريات التى وجدها فی ديار المهجر، وذلک لأن شوقه لوادی النيل لايبلی وحبه باق فی الأعماق، وحنينه لقومه وعشيرته لايبدده الزمان، ولاينقصه الدهر فهو حب خالد، فالحنين إلى النيل والتشوق إليه، هو وفاء له وبر لما أسداه للأهل والعشيرة من نفع وعيش رغد، فالقلوب تكنّ له الولاء والإخلاص رغم البعد والاغتراب. فأرض النيل هی الثرى والمربع الذی شهد الذكريات الحالمة وأحاديث الشوق الفائتة والتی تولع النفس بترديدها وحكاياتها لتجد فيها العزاء والسلوى، ولتجد فی روايتها تنفيسا لهواجس النفوس ولوعتها.

فللشاعر عند ضفاف النيل ذكريات هوى، وصبابات حب قد شهدها النيل فی سالف الزمان، أيام كان الشاعر يتدله فی حب لميس التی كانت تميد مهفهفة الأطراف بين دوحات النيل فهو يحن لتلک الأيام التی تعيش ذكراها فی النفس حية جياشة، وإن بعد عن النيل وعن دياره، فإنّ الذكريات باقية فی النفوس التی لم تسعد بذلک الفراق للنيل والحبيب والقوم الكرام. الحنين إلى النيل وذكرياته العطرة هو حنين لذكريات الهوى والغرام والمحبين، ولولا عزم الشاعر على اجتياز المحن والتغلب على الصعاب،

١. بنة العطر: انتشاره وهی معروفة فی الدارجة السودانية.

www.SID.ir

Archive of SID

وإيمانه باسداء الجميل إلى قومه وعشيرته لهاجر من الديار بعدما ساد فيها الذل والهوان والخصومات ولكن تعلقه بكل ما ذكره شوقه وحنينه إليه يقعد به عن مفارقة الديار وهجر أرض النيل وهو الذى تشتاق إليه النفوس فيقول فى قصيدته غربة و ذكرى:

شَوقًا إلى النَّيلِ ذِى البَشَاشَة كَم   سَعِدتُ فى رِيفه ومُدُنِه
وكَم تَحَسُّيتُ مِن سُلافَتِه   مكرم العَرشِ غَير مُمتَهِنه

(الطيب، ۱۹۹۲م: ۲۱۳)

فالشوق إلى النيل والحنين إليه، شوق إلى المكارم والعلى، وتطلع للشرف والرفعة، وأرضه هى مربع أحاديث الهيام والليالى الملاحة. فالنيل هو الذى شهد أقاصيص الهوى، وأحاديث الغرام وعناق المحبين وتمازج أرواحهم فى مودة وصفاء. فالنفس تحن إليه وتطرب لذكراه، فكم هى واجدة عند المسرة، ومحبة الآخرين.

فالنيل هو أرض الجدود والأهل والقوم الكرام فأرض النيل، هى دار العشيرة ووطن الآباء والقوم الطيبين والذين ضمّهم ترابه منذ أمد بعيد، قبل أيام الفونج، بل قبل أيام حروب العرب بذى قار فى أيام الجاهلية، فحمى النيل هو حمى شعب السودان، وفى قول شاعرنا دلالة على الرباط الوثيق بين النيل وشعبه، فهو استلهم من تاريخه النضر كل معانى. الرفعة والسمو فيقول فى مقطوعته زنجية:

وجاريةٍ ما ثَوْبها غَيرُ يارقٍ   وحَقو من الأغْصَانِ والورقِ الخُضر[1]
لها لَونٌ كُحلى الحريرِ وقَدْ طَفَتْ   من الآبَنُوسِ موجتَان على الصَّدر
فَغُضَّ سَوَامَ الطَّرفِ وأعْلَمْ بأنَّها   عليها ثيابٌ من طبيعتها البِكرِ
هى ابنةُ غابِ النيل كَوثرِكَ الذى   سَقَى الحِقَبَ الماضِينَ تجربَة الدَّهر

(الطيب، ۱۹۹۲م: ۵۱)

فهو تاريخ حى يجرى بين الناس، يستشف منه الماضى وعبره وتجاربه وهو الذى يضم أرواح الجدود بين شطيه وهم ذوو عقيدة حنيفة، وسرائر طاهرة كريمة، تشربت كتاب الله فكان حاديهم ودليلهم إلى العلياء، ورفض الظلم والاستعباد، فكان سبيلهم هو

١. اليارق: عقد من الخرز. الحقو حزام يشد فوق العجز ودون البطن.

www.SID.ir

Archive of SID

سبيل العزة والسؤدد فما النيل إلاّ كتاب، نقرأ فى صفحاته ذلک الماضى الناصع، وننعم على شطيه وبين جروفه بالأمن والغبطة.

فالنِّيل رمز الخلود والديمومة وهو سر الوجود والحياة بما يحمله فى جوفه واستعمال الشاعر لكلمة (الماء) لعلها اقتباس من قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حى﴾ (الأنبياء: ٣٠) فالماء هو عصب الحياة وعمادها وسر كنهها، فهو الذى يهب الإنسان الوجود، ولكن الإنسان يفنى والنيل يبقى خالدا أبد الدهر. وما حياة الإنسان إلا كالسراب الذى يزول ويفنى والنيل باق فى خلوده وديمومته، فيقول:

ينساب ماؤک ويزخر عبابک
يا نِيلُ كَم تَنسَاب
ويزخَرُ العِبَاب
المَاءُ أنتَ إنَّنا سَرَاب

(الطيب، ١٩٩٢م: ١١٢)

فالنيل هو كوثر الدنيا، بل هو الكوثر المجسد على الثرى بين شطآنه جنات ونعيم، وماؤه يسكر من فرط لذته، فالشاعر عندما يقف على شاطئ النيل، إنَما يقف أمام كوثر ذى سحر خلاب، يلهم المتأمل فيه المعانى المتدفقة، والبيان الرصين، وتسلب لذة مائه عقل كل من ذاقها فهى شهد الكوثر: فماؤه سلسبيل عذب، هو أصل الحياة، ما يفتأ يجود به النيل على أهله، وذويه، فتنقلب حياتهم نعيماً وعشياً كريماً:

أو كَوثَرُ النِّيلِ سَـقَى ما سَـقَى فَأصلَـحَ الكَـونَ بِمـا أصلَحا

(الطيب، ١٩٩٢م: ١٢٩)

فالنِّيل حياة وعطاء ونماء وإصلاح. النيل المفدى، وهذه أيضاً من الصفات التى وصف بها النيل، وهى صفة (الفداء) ولا شک أن الذى يفدى لهو عزيز على النفس، يصعب عليها فراقه، ويهون عندها التضحية فى سبيله.

تَدَفَّـقْ أيهـا النِّيـلُ المُفَدّى وسَـل بَين الأباطِح والهِضاب
عَـزَاء النّفسِ أنت إذا تَغَشـى رُبَى الآمال يـأسٌ كالضَباب

(الطيب، ١٩٩٢م: ٢٠١)

www.SID.ir

Archive of SID

فهو عزيز مفدى عند النفوس التى تجد عنده الراحة والطمأنينة وهى التى تلوذ به إذا اهتاجها عارض همّ أو غمّ، تجد عنده اللسلوى والعزاء ويبث فيها الأمل والرجاء.

النتيجة

١. الشعر من أحسن أشكال التعبير الفنى فى تصوير الطبيعة (ظاهرها، سحرها، روعتها...) فعبدالله الطيب يتخذ من محاسن الطبيعة مادة لخياله.

٢. تطور حب الشاعر من حُبّ مادى إلى حب روحى للنِّيل وأعجب به يصور جمال طبيعته ويتمتع بجماله وجلاله ومهابته.

٣. النيل عنده رمز من رموز الشوق والحنين وهو المأوى والدار والمنزل.

٤. الحنين إلى النيل والتشوق إليه هو وفاء له كما هو حنين إلى الحبيب واشتياق له وهو شوق إلى المكارم والعلى.

٥. فالنيل عنده هو كوثر الدنيا وماؤه يسكر من فرط لذته كخمر فماؤه سلسبيل عذب، وهو أصل الحياة.

٦. يتغنى بالنيل الذى يربط بين القطرين (مصر السودان) وينهل منه الشعبان.

٧. النيل عند عبدالله الطيب هو رمز للسودان ورمز للحرية واتخذه مثالا يحتذى فى وحدة الصف والتضامن عبر التاريخ والأيام.

المصادر والمراجع

القرآن كريم.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لاتا. *لسان العرب*. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

التنى، فتح الرحمن حسن. ١٩٨٨م. *النيل فى الشعر السودانى*. الخرطوم: الدار السودانية للكتب.

الزبيدى، أبوالفيض محمد بن المرتضى. ١٣٠٦ق. *تاج العروس من جواهر القاموس*. القاهرة: المطبعة الخيرية.

الشامى، صلاح الدين. ١٩١٧م. *دراسات فى النيل*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

www.SID.ir

Archive of SID

طالبی، محمد علی. ۱۳۷۶ش. *النيل فی شعر أبناء النيل*. مجلة زبان وأدب. العدد الثانی.
الطيب، عبدالله. ۱۹۹۲م. *أصداء النيل (ديوان)*. الطبعة الخامسة. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.
الطيب، عبدالله. ۱۹۹۱م. *المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها*. الجلد الثالث. الطبعة الرابعة. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.
..... . لاتا. *بانات رامة (ديوان)*. الخرطرم: الدار السودانية.
قاسم، عون الشريف. ۱۹۸۵م. *قاموس اللهجة العامية فی السودان*. القاهرة: المكتب المصری الحديث.
ممتحن، مهدی. *«المياه ومفاهيمها بين القرآن والأدب الجاهلی»*. فصلية التراث الأدبی. ربيع ۱۳۸۹ش. العدد۶. صص ۱۷۷-۱۶۷.

www.SID.ir